التداخل النصي في القصيدة الحديثة
شعر عبد اللّه الجنابي أنموذجاً

المدرس الدكتور
إيمان مطر السلطاني
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

التداخل النصي في القصيدة الحديثة شعر عبد اللّه الجنابي أنموذجاً

المدرس الدكتور
إيمان مطر السلطاني
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

المقدمة

يُعدّ التدخل النصي علاقة خطاب الآخر بخطاب الأنا ، وكما هي علاقة دلالية هي علاقة حوارية بين النصوص ، يتعالق بعضها مع بعض حتى أن أصولها الأولى تختفي او تكاد تتلاشى في وسط هذا التعالق .ولما كان شعر عبد الله الجنابي مليئاً بالتداخل النصي حتى لا يكاد نص يخلو منه ارتأينا أن ندرس هذه الظاهرة في شعره .

وعند استقراء ديواني الشاعر عبد الله الجنابي (صدى الأسئلة) و(هولاكو ست عراقية) لبيان آلية التناص وجدنا أن هناك مرجعيتان قد كونتا شعره : المرجعية القرآنية والمرجعية التاريخية ؛ لذلك قسمنا بحثنا "التداخل النصي في القصيدة الحديثة ، شعر عبد الله الجنابي أنموذجا" إلى مبحثين الأول : التناص القرآني)بحثنا فيه تداخل النص مع النصوص القرآنية المختلفة ، ودرسنا في المبحث الثاني (التناص التاريخي) الوقائع التاريخية التي تناصت في شعر الجنابي ، وخصصنا لوقعة الطف وشخصية الحسين المبحث بكامله ، وقد مهدنا للمبحثين بتوطئة : (التداخل النصي ، المفهوم والوظيفة) تناولنا فيه أهم تعريفات التداخل النصي وعلاقته بقضية السرقات ، وعلاقة النص بالقارئ من خلاله ثم تطرقنا لأنواعه على ضوء ما قدمته جوليا كريستفا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

توطئة : التداخل النصي

المفهوم الوظيفة

يعد المؤلف صاحب سلطة على النص في لحظة الإبداع ،لأنّ البنى المعرفية والثقافية للمؤلف ، فضلاً عما تختزنه ذاكرته اللاواعية من تجارب فنية أو اجتماعية أو حياتية تسهم بشكل أو بآخر في خلق النص ، وتشكيل طبقاته الدلالية ، ومن التشكيل المعرفي المتنوع للنص يكتسب النص وجوده المادي ، وتنتقل السلطة الفعلية بعد الإنتاج إلى النص ، وتسهم المادة الأولية للنص في هيكلة النص الشكلية والمضمونية [1]، وتجعله في علاقة دلالية مستمرة معها ، إذ لا بد لكل إبداع بشري من أصول يرتكز عليها ، على الرغم من ان هذه الأصول تختلف من حقبة إلى أخرى بحسب طرق معالجتها ومناهج تناولها [2]. وهذه العلاقة القائمة والحتمية بين

النص وأصوله هو ما يُدعى بالتداخل النصي (التناص) يعرف التداخل النصي على انه : "ظاهرة مشخصة لكل خطاب ، وهو الغاية الطبيعية لكل خطاب حي . يفاجئ الخطاب خطاب الآخر بكل الطرق التي تقود إلى غايته ولا يستطيع شيئاً سوى الدخول معه في تفاعل حاد وحي " [3]. او على انه : "مجال عام للصيغ المجهولة ، التي نادراً ما يكون أصلها معلوماً لا ستجلابات لا شعورية عفوية "[4] .

تعد قضية السرقات في النقد العربي القديم الجذور الأولى لظاهرة التداخل النصي ، إذ إن "الباحث المعاصر مهما بالغ في إبعاد الشقة بين مصطلح التناص ، وما ماثله في النقد العربي القديم فانه يجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بتلك القرابة مدفوعاً بمسوغات عقلية وآخر نقلية ترى في التناص بناءً إبداعيا مؤسساً على أرضية قديمة "[5]، على الرغم من كثرة المصطلحات التي تناولها النقاد العرب في القضية نفسها بسبب تفاوت درجات الأخذ والسرقة الا انها تنصب جميعها في مصطلح التداخل النصي او التناص ، فقد عبر الجاحظ عن هذه الظاهرة بقوله : "المعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم واعاريض اشعارهم ، لا يكون احد منهم احقّ بذلك المعنى من صاحبه "[6] ، ويقول الحاتمي في درجات الاخذ : ترقيع الالفاظ وتلفيقها واجتذاب الكلام من ابيات حتى ينظم بيتاً "[7] ، ويرى ابن رشيق فيه :" ان يؤلف الاخذ البيت من ابيات قد ركب بعضها من بعض "[8]. لكن تبقى ظاهرة التناص اشمل واعمّ من قضية السرقات ، وذلك لان الأولى ترتبط في علاقات مع نصوص ادبية او غير ادبية ، او ربما معرفية او ثقافية، [9]وتبقى الثانية في حدود الجنس الادبي الواحد ، الا هو الشعر .

ينجم عن التداخل المتقدم تشظي في الدلالات التي يتضمنها النص ، وذلك لهيمنة بعض المواقف اللغوية او المعرفية السابقة على النص ، ويقع على عاتق القارئ تفكيك ذلك التشظي ، ومحاولة ارجاع كل دلالة إلى عنصرها الذي انبعثت منه ، وبذلك تنتقل السلطة من النص إلى القارئ [10].

تزداد علاقة القارئ بالنص تشعباً بواسطة التناص ، لا غنى لاحدهما عن الاخر ؛ إذ ان القارئ لا يعمل على تحليل البنية الشكلية وصولا إلى الطابع الجمالي او الفني للنص فحسب وانما يعمل على التحليل المضموني للنص وهذا ما طرحته جوليا كريستفا حول انواع التناص ، فقد ميزت بين نوعين هما : التناص الشكلي و التناص المضموني [11] ؛ يهتم الأول بالالفاظ والتراكيب والعبارات والاساليب والصور وغيرها ، ويهتم الثاني بالمضامين الاجتماعية والثقافية والاسطورية والفنية والبنى المعرفية العامة ، السابقة على النص او المعاصرة له [12] . ويسهم بشكل او باخر في تبيان المرجعية النصية للنص المدروس، يشير إلى الدلالة المقصودة ويفكك التشظي الدلالي .

المبحث الأول

التناص القرآني

لقد داب الشعراء على استلهام النص القرآني بلفظه او بمعناه ، او بلفظه ومعناه معاً ؛لان النص القرآني كان وما يزال نصاً ثرياً يغني النصوص الادبية (شعراً ام نثراً) بالألفاظ والدلالات ، لكن شعر عبد الله الجنابي يغلب عليه التناص اللفظي من القران الكريم ؛ كقوله [13]:

حتى تصل الباب الأعلى
أقرأ
ماذا تقرأ؟
تزين صدر الباب طلاسم
كهعصم
بوصلة فقدت وجهتها

فالتناص في هذه الآبيات يشير إلى الاية الشريفة : "اقرا باسم ربك الذي خلق "[14]، والى الاية الكريمة :" كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا" [15]، اذا ما العلاقة بين الايتين وسياقهما وسياق القصيدة ؟ ان القصيدة تتضمن بعض دلالات الحيرة والضياع لدى الشاعر الذي تتيه عنده الاشياء ، ويضيع الامل حتى يأمل في معجزة يمكن ان تبدد الضياع وترسم طريقاً لتحقيق الاماني ، ولكن المعجزة لم تحدث وتتكرر الحيرة وتدور . هذه القراءة للنص تتناسب مع الاية الأولى "اقرأ...."لانها اول اية نزلت على رسول محمد "ص"وتحمل دلالة ما ياتي به من معجزة ، الا وهي القراءة لرجل أميّ اولاً ، والنص نفسه ياتي معجزاً للعرب ثانياً ، اما الاية الثانية "كهيعص....."فان ابتداءها بالحروف حيرت المفسرين في تحديد دلالتها ، ولكن سياق الاية يوحي بنداء نبي الله زكريا (ع) ربه ان يرزقه ولداً ، والحصول على الولد في مثل سنّ زكريا "ع" وزوجته يعد معجزة ايضا ، فسياق الايتين يتضمنان معجزة ، وسياق الابيات يشير إلى امنية الذات الشاعر حصول معجزة ايضا تتمثل بتبدد الحيرة وصناعة الامل .

وفي ابيات اخرى يحاول الشاعر ان يحور المضامين القرآنية إلى مضامين جديدة مقلوبة عن اصلها الدلالي او متضادة مع الدلالة السابقة [16]، كقول الشاعر [17]

وسليمان
اخرج بلقيساً من جنتها
لم تشبعه كنوز الارض
وبلاد.....
ما خالفه فيها
انس او جان

يتوعد فيها
حتى الهدهد
والنملة
لكنّي....
اسمع صوت الهدهد
في الليل يؤذن :
تأتي الحرية
يوم يموت سليمان

ان هذه الابيات تشير إلى سورة النمل وقصة نبي الله سليمان (ع) مع ملكة سبأ بلقيس وقصة ايمانها بالله ، والنبي سليمان "ع" استطاع ان يخضع كل الكائنات للايمان بالله وخدمة رسالته ولكن هذه الابيات تشير إلى ان سليمان طاغية ، تخافه الكائنات لجبروته وطغيانه ، وانه لا يترك صغيرة او كبيرة الا واخضعها لإرادته ،فجاء سليمان هنا رمزاً لطاغية حكم العراق قبل (2003)م والقصيدة بكاملها جاءت تحويراً لرسالات الانبياء فمن هداة ومصلحين ودعاة إلى طغاة وجبابرة وكلها جاءت رموزاً لمرحلة تاريخية مهمة من تاريخ العراق المعاصر ، وفي ابيات اخرى يحاول الشاعر ان يحور ويوسع الفكرة القرآنية باثرائها بمكونات ومنتجات جديدة لتكوين النص [18] ، يقول فيها [19]:

كانوا احلامهم
طويلة
ويحتفون في تكرارها
من دونما ضجر
لكنها الحرب
تلقفت يونس من شاطئه
فانغرست اضلاعه انتظار
وانسفحت الوانه الدماء
تضرج الشطان
ولونت احلامه
وخبأت نعامه رؤوسها

ان الابيات تشير إلى الاية الكريمة :"فالتقمه الحوت وهو مليم " [20]والى الاية القرآنية: "فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم"[21]. وعلى الرغم من ان الايتين تشيران إلى قصة نبي الله ايوب "ع" ولكن الشاعر الجنابي استطاع ان يحول النص إلى قضية اخرى ؛فالحوت يوحي بالحرب التي تلتهم كل شيء بما في ذلك الانبياء والادباء ، وتقتل وداعة الحياة ، وهدوء النفس ، وتحول كل شيء إلى خراب ودمار ، والكل ينتظر الخلاص او النجاة او الفرار ، بل الانسان يتحول إلى نعامة تدفن رأسها في صراعه مع القدر والموت .

ويأتي نبي الله ايوب "ع" معادلاً للانسان الصابر على بلاء الحرب ؛ فالحرب بحاجة إلى الصبر والامل والارادة والقوية .

وقد يعمد الشاعر في احيان قليلة إلى ان يجعل النص السابق متماهياً في النص الجديد فلا يظهر له اثر كقوله [22]:

تضجّ في صراخيها
مذ انزل الله
على اديمها الانسان

ففي الابيات المتقدمة اشارة إلى الاية القرآنية : "فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع إلى حين " [23]، فالانسان هنا هو نبي الله ادم "ع" وزوجه عندما طردا من الجنة إلى الارض ، فالارض تستصرخ وجود الانسان ، هذا الكائن الذي لعب دوراً على هذه الارض تارة في البناء والاعمار ، وتارة في الشرور والاثام ، وجاء الانسان في هذه الابيات دلالة على الشر والفساد .

المبحث الثاني

التناص التاريخي

داب الشعراء على استلهام التراث من ادب وفن وتاريخ وغيرها ، وتاتي الاحداث التاريخية او الشخصيات التاريخية والدينية في شعر عبد الله الجنابي على درجات متفاوتة ؛ فمن اشارة إلى رمز إلى تقطيع للفكرة او اثراء لها او ايجازلها ، واحياناً اخرى الجمع بين احداث الماضي والحاضر على سبيل المزاوجة او المماثلة او غير ذلك ، وقد استلهم الشاعر شخصية الحسين "ع" في شعره على درجات متفاوتة ، ففي قصيدته "رثاء" ، يقول الشاعر [24]:

لوبايع الحسين
او فلنقل
لو هادن الحسين ؟
لو ترك البلاد والعباد ؟
واثر السلامة .....
هل كنتم ايضا ستلطمون
متى اذن ستفخرون ؟
من منكم لم يقرأ التاريخ ؟
هل انجبت صحرائكم
شبه الحسين

يتساءل الشاعر في الابيات المتقدمة عن قلب فلسفة الثورة الحسينية وامتداداتها في الوقت الحاضر بالحرف (لو) ، ولكنه يستثني ذلك ليسأل اجيال العصر الحديث عن انجابها وليداً شبيهاً بالحسين "ع" فالشاعر يحاول قلب المضامين

والمعاني ولكنه يترك المتلقى في هذا القلب المشروط بـ(لو) ، فالتناص في هذه الابيات لم يتجاوز التساؤل عن امتداد وقعة الحسين "ع" في وقتنا الحاضر .

ولكن الشاعر عبد الله الجنابي يجعل من شخصية الامام الحسين "ع" امتداداً في الحاضر ، تلتحم معه معظم الشخصيات الثائرة او الفدائية لانقاذ مبدأ او انارة طريق لكل مجاهد او مناضل ، فيقول الشاعر [25] :

انا والحسين عراقيان
حدّ العظم
قد تقاسمنا السمات
انا والحسين عراقيا ن
بجمعنا
انا ضحايا امة حمقاء
تحترم الطغاة
....
انا والحسين مخلوقان من عسل السلام
كفان من عطر
تعطر منهما
جسد العراق فاينعت
....
انا والحسين
نهران من مطر
وهبا الحياة
لهذي الارض

يستدعي الشاعر شخصية الحسين "ع" إلى العصر الحاضر . لتندمج مع الشخصية العراقية المخلصة لوطنها ؛ فالحسين يمثل معاني الاخلاص والتفاني في كل شيء ، ومنها الدفاع عن الوطن وحبه والذوبان فيه ، لذلك نجد ان الشاعر عمد إلى الشخصية الثائرة الفدائية ، فجعلها رمزاً للشخصية الفذة حيث تستوعب شخصية "الحسين ع" وامتداداتها الحاضرة ، لذا نجد ان المعاني والدلالات قد توسعت لتشمل كل المعاني التي تتطلبها المواطنة العراقية .

ولكن شخصية الحسين "ع" في مواضع اخرى تذوب في النص الشعري، ولا يدل على الشخصية سوى عنوان المقطوعة الني تحمل عنوان "الحسين ""ع"، يقول فيها [26]:

في البدء
المني احتراقك.....
ياصديقي
الا انني :
احصيت كل السائرين

على سفر احتراقك
فانتشيت ....

لا تظهر شخصية الحسين او مبادئ الثورة الحسينية في الابيات المارة الذكر ، وانما يتجلى امتداد الثورة في صورة السائرين إلى كربلاء او المتنورين بنور الحسين "ع" ، وعلى الرغم من عدم اشارة الابيات إلى الثورة والقيم السامية ،ولكن السائرين يحملون تلك المعاني ، لذلك فالمعاني المأخوذة من النص التاريخي مذابة في نص الشاعر اذابة كاملة لا اثر فيها للنص القديم ، ولا تظهر الدلالة الا بتفكيك طبقات النص الباطنة .

يظهر مما سبق ان التناص بنوعيه : القرآني والتاريخي وظفا في نص عبد الله الجنابي على درجات متفاوتة بين التناص الشكلي والتناص المضموني ، وفي كلا النوعين ايضا .

الخاتمة

في نهاية بحثنا هذا لابد ان نبرز أهم النتائج التي توصل اليها الباحث من خلال مسيرته البحثية المتواضعة:

- يعد مصطلح التناص معادلا لمصطلح التداخل النصي او التعالق النصي
- يتميز شعر عبد الله الجنابي في ديوانيه :(صدى الاسئلة)و(هولاكو ست عراقية)بكثرة التناصات ،ولكن يبرز التناص القرآني والتناص التاريخي بصورة كبيرة في شعره.
- يفيد التناص القرآني من القصص القرآني كثيراً ، لكن استلهامه لتلك القصص يتفاوت فمن نقل حرفي لها الى قلب مضامينها إلى اثرائها بمكونات جديدة تعيد انتاج النص إلى تماهي النص الاصلي في نص الجنابي.
- معظم ماجاء من تناصات تاريخية هي تناصات تستلهم وقعة الطف وشخصية الحسين "ع" والغالبية من هذه التناصات نجدها في ديوانه (هولاكو ست عراقية).
- جاءت شخصية الحسين مهيمنةً على التناص التاريخي فمن شخصية تاريخية إلى شخصية تتحد مع شخصيات معاصرة إلى شخصية ذائبة في النص .

هوامش البحث

1- قضية المضمون ، والمادة الاولية والشكل في الابداع اللغوية الفني – ميخائيل باختين – تر:د.جميل نصيف التكريتي – مجلة الثقافة الاجنبية –ع 4-السنة الثانية عشرة –دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد -1992-174.

2- ينظر مشكلة التناص في النقد الادبي المعاصر – محمد اديوان – مجلة الاقلام –ع4 ،5,6- نيسان ، مايس ، حزيران – السنة الثلاثون دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد -1995-43.

3- التناص تزفتيان تودوروف –تر:فخري صالح –مجلة الثقافة الاجنبية –ع4- السنة الثامنة – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد 1988-5-

4- نظرية النص – دولان بارت – تر: محمد خير البقاعي – مجلة العرب والفكر العالمي – ع3 – مركز الانماء القومي – بيروت – 1988-96.

5- اصول مصطلح التناص في النقدالعربي القديم – فاضل عبود التميمي – مجلة الموقف الثقافي – ع- 36 – تشرين الثاني – كانون الأول – 2001 م -70.
6- الحيوان – ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت 255هـ - تر : عبد السلام محمد هارون –ط 3 – بيروت – 1969م -3\113.
7- حلية المحاضرة في صناعة الشعر – ابو علي محمد بن الحسن الحاتمي ت 388هـ تر: د. جعفر الكتاني – دار الرشيد – 1979 م -2\90.
8- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده – ابن رشيق القيرواني ت 456هـ تر: محي الدين عبد الحميد – ط4 – دار الجيل – بيروت – 1972- 2\282.
9- ينظر : ادونيس منتحلاً- دراسة بالاستحواذ الادبي وارتجالية الترجمة يسبقها ما هو التناص ؟ - كاظم جهاد – ط2 – مكتبة مدبولي – القاهرة – 1993م -42.
10- ينظر من سلطة النص إلى سلطة القراءة – فاضل ثامر – مجلة الفكر العربي المعاصر – ع 48 ، 49- كانون الثاني ، شباط -1988-89.
11- ينظر : مشكلة التناص في النقد الادبي المعاصر – 44.
12- ينظر : المصدر نفسه 45.
13- ديوان "صدى الاسئلة " – عبد الله الجنابي – ط1 – مطبوعات الاتحاد العام للادباء والكتاب في النجف – النجف – 2008 م- 13.
14- سورة العلق اية 1.
15- سورة مريم اية 1.
16- ينظر :نظرية المنهج الشكلي – نصوص الشكلانيين الروس – تر: ابراهيم الخطيب –ط 1 – الشركة المغربية للناشرين المتحدين – مؤسسة الابحاث العربية – بيروت ، لبنان 1992م - 11.
17- ديوان "صدى الاسئلة " 31-32.
18- ينظر : ادونس منتحلاً – دراسة بالاستحواذ الادبي وارتجالية الترجمة يسبقها ماهو التناص ؟54.
19- ديوان "هولاكو ست عراقية" –عبد الله الجنابي –ط1 – دار الينابيع للطباعة والنشر – سوريا – 2009م – 29,30.
20- سورة الصافات اية 142.
21- سورة القلم اية 48 .
22- ديوان "هولاكو ست عراقية "7.
23- سورة البقرة اية 36.
24- ديوان "هولاكو ست عراقية "119.
25- المصدر نفسه 23 وما بعدها .
26- ديوان "صدى الاسئلة "8.

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم
١ - ادوينس متحلا- دراسة بالاستحواذ الادبي وارتجالية الترجمة ، يسبقها ماهو التناص ؟ - كاظم جهاد –ط2 – مكتبة مدبولي – القاهرة – 1993م .
٢ - اصول مصطلح التناص في النقد العربي القديم – فاضل عبود التميمي – مجلة الموقف الثقافي – ع 36 – تشرين الثاني – كانون الأول – 2001 م .
٣ - التناص – تزفيتان تودوروف – تر : فخري صالح – مجلة الثقافة الاجنبية ع 4 – السنة الثامنة – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد 1988م .

٤ - حلية المحاضرة في صناعة الشعر – ابو علي محمد بن الحسن الحاتمي ت 388هـ تر : د.جعفر الكتاني – دار الرشيد – 1979م.
٥ - الحيوان – ابو عثمان عمرو بحر الجاحظ ت 255هـ تر: عبد السلام محمد هارون – ط3 – بيروت – 1969م.
٦ - ديوان "صدى الاسئلة "- عبد الله الجنابي – ط1 – مطبوعات الاتحاد العام للادباء والكتاب في النجف -2008م.
٧ - ديوان "هولاكو ست عراقية " – عبد الله الجنابي –ط1 – دار الينابيع للطباعة والنشر – سوريا -2009م.
٨ - العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده – ابن رشيق القيرواني ت 456هـ تر : محي الدين عبد الحميد –ط4- دار الجيل – بيروت – 1972م.
٩ - قضية المضمون ، والمادة الاولية والشكل في الابداع اللغوي الفني – ميخائيل باختين – تر : د.جميل نصيف التكريتي – مجلة الثقافة الاجنبية – ع 4 – السنة الثانية عشرة – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد 1992م.
١٠ - مشكلة التناص في النقد الادبي المعاصر – محمد ادیوان – مجلة الاقلام – ع4 ،5,6- نيسان ، مايس ، حزيران – السنة الثلاثون – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – 1995 م.
١١ - من سلطة النص إلى سلطة القراءة – فاضل ثامر =- مجلة الفكر العربي المعاصر ع48,49- كانون الثاني ، شباط -1988م.
١٢ - نظرية المنهج الشكلي – نصوص الشكلانيين الروس – تر : ابراهيم الخطيب –ط1 – الشركة المغربية للناشرين المتحدين – مؤسسة الابحاث العربية – بيروت ، لبنان – 1992م.
١٣ - نظرية النص – رولان بارت – تر: محمد خير البقاعي – مجلة العرب والفكر العالمي – ع3 – مركز الانماء القومي – بيروت 1988م.